بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة إبراهيم عليه السلام مكية

الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾.

﴿كتاب﴾ هو كتاب يعني: السورة. وقرئ: ليخرج الناس. والظلمات والنور استعارتان للضلال والهدى ﴿بإذن ربهم﴾ بتسهيله وتيسيره، مستعار من الإذن الذي هو: تسهيل للحجاب، وذلك ما يمنحهم من اللطف والتوفيق ﴿إلى صراط العزيز الحميد﴾ بدل من قوله: إلى النور بتكرير العامل كقوله: ﴿للذين استضعفوا لمن آمن منهم﴾[1] ويجوز أن يكون على وجه الاستئناف كأنه قيل: إلى أي نور؟ فقيل إلى صراط العزيز الحميد.

ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾.

وقوله: ﴿الله﴾ عطف بيان للعزيز الحميد؛ لأنه جرى مجرى الأسماء الأعلام لغلبته واختصاصه بالمعبود الذي تحق له العبادة كما غلب النجم في الثريا، وقرئ: بالرفع على هو الله. الويل نقيض الوال وهو: النجاة، اسم معنى كالهلاك إلا أنه لا يشتق منه فعل إنما يقال: ويلاً له فينصب نصب المصادر ثم برفع رفعها لإفادة معنى الثبات فيقال: ويل له كقوله: سلام عليك، ولما ذكر الخارجين من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان توعد الكافرين بالويل.

فإن قُلْتَ: ما وجه اتصال قوله: ﴿من عذاب شديد﴾ بالويل؟ **قُلْتُ:** لأنّ المعنى: أنهم يولولون من عذاب شديد ويضجون منه ويقولون: يا ويلاه كقوله: ﴿دعوا هنالك ثبورًا﴾[2].

ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾.

﴿الذين يستحبون﴾ مبتدأ خبره أولئك في ضلال بعيد، ويجوز أن يكون مجرورًا صفة للكافرين، ومنصوبًا على الذمّ، أو مرفوعًا على أعني الذين يستحبون، أو هم الذين يستحبون، والاستحباب: الإيثار والاختيار، وهو: استفعال من المحبة؛ لأنّ المؤثر للشيء على غيره كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحبّ إليها وأفضل عندها من الآخر. وقرأ الحسن: ويصدّون بضم الياء وكسر الصاد يقال: صدّه عن كذا وأصدّه قال:

أناس أصدّوا الناس بالسيف عنهم

والهمزة فيه داخلة على صدّ صدودًا لتنقله من غير التعدّي إلى التعدّي، وأمّا صدّه فموضوع على التعدية كمنعه وليست بفصيحة كأوقفه؛ لأنّ الفصحاء استغنوا بصدّه ووقفه عن تكلف التعدية بالهمزة ﴿ويبغونها عوجًا﴾ ويطلبون لسبيل الله زيغًا واعوجاجًا وأن يدلوا الناس على أنها سبيل ناكبة عن الحق غير مستوية، والأصل ويبغون لها فحذف الجار وأوصل الفعل ﴿في ضلال بعيد﴾ أي: ضلوا عن طريق الحق ووقفوا دونه بمراحل.

فإن قُلْتَ: فما معنى وصف الضلال بالبعد؟ **قُلْتُ:** هو من الإسناد المجازي، والبعد في الحقيقة للضالّ لأنه هو الذي يتباعد عن الطريق فوصف به فعله، كما تقول: جدّ جدّه، ويجوز أن يراد في ضلال ذي بعد، أو فيه بعد؛ لأنّ الضالّ قد يضلّ عن الطريق مكانًا قريبًا وبعيدًا.

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾.

﴿إلا بلسان قومه ليبيّن لهم﴾[3] أي: ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه، فلا يكون لهم حجة على الله ولا يقولوا لم نفهم ما خوطبنا به كما قال: ﴿ولو جعلناه قرآنًا أعجميًا لقالوا لولا فصلت آياته﴾[4].

فإن قُلْتَ: لم يبعث رسول الله ﷺ إلى العرب وحدهم وإنما بعث إلى الناس جميعًا. ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا﴾[5] إلى الثقلين وهم على ألسنة مختلفة، فإن لم تكن للعرب حجة فلغيرهم الحجة، وإن لم تكن لغيرهم حجة فلو نزل بالعجمية لم تكن للعرب حجة أيضًا. **قُلْتُ:** لا يخلو إمّا أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة؛ لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفي التطويل، فبقي أن ينزل بلسان واحد، فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول لأنهم أقرب إليه، فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوقل عنهم وانتشر، قامت التراجم ببيانه وتفهيمه، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم في كل أمّة من أمم العجم، مع ما في ذلك من اتفاق أهل البلاد

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 75.

(2) سورة الفرقان، الآية: 13.

(3) قال أحمد: جميع الفصل مرضي، لكن في هذه الخاتمة نظر؛ لأن فيها إشعاراً بأن إعجاز القرآن من حيث اللغة العربية خاصة، يتقاصر عن إعجازه لو قدر منزلاً بكل لسان، حتى أنه لو ينزل بجميع اللغات، لبلغ من الوضوح إلى حدّ يكاد أن يكون إلجاء إلى الإيمان به، وهذا فيه نظر، والقول به غير متعين؛ لأن المعجز يفيد = العلم بصدق من ظهر على يده، ومتى حصل العلم، لم يكن بين علم وعلم تفاوت ولا ترجيح بين العلمين، وهذا هو التحقيق، والله أعلم. والزمخشري يبني في كثير من كلامه، على أن العلوم تتفاوت وتنقسم إلى جلي وأجلى، وهو من الحق بمعزل، وإنما ظنّ ذلك طائفة ظاهرية، والله الموفق.

(4) سورة فصلت، الآية: 44.

(5) سورة الأعراف، الآية: 158.

المتباعدة والأقطار المتنازحة والأمم المختلفة والأجيال المتفاوتة على كتاب واحد، واجتهادهم في تعلم لفظه وتعلم معانيه، وما يتشعب من ذلك من جلائل الفوائد، وما يتكاثر في إتعاب النفوس وكدّ القرائح، فيه من القرب والطاعات المفضية إلى جزيل الثواب، ولأنه أبعد من التحريف والتبديل، وأسلم من التنازع والاختلاف؛ ولأنه لو نزل بالسنة الثقلين كلها مع اختلافها وكثرتها وكان مستقلاً بصفة الإعجاز في كل واحد منها، وكلم الرسول العربيّ كل أمّة بلسانها كما كلم أمته التي هو منها يتلوه عليهم معجزًا، لكان ذلك أمرًا قريبًا من الإلجاء، ومعنى بلسان قومه: بلغة قومه، وقرئ: بلسن قومه، واللسن واللسان كالريش والرياش بمعنى: اللغة، وقرئ: بلسن قومه بضم اللام والسين مضمومة أو ساكنة وهو: جمع لسان كعماد وعمد وعمد على التخفيف، وقيل: الضمير في قومه لمحمد ﷺ. ورووه عن الضحاك، وأن الكتب كلها نزلت بالعربية ثم أدّاها كل نبيّ بلغة قومه وليس بصحيح؛ لأنّ قوله: ليبيّن لهم ضمير القوم وهم العرب فيؤدّي إلى أن الله أنزل التوراة من السماء بالعربية ليبيّن للعرب وهذا معنى فاسد ﴿**فيضل الله من يشاء**﴾ كقوله: ﴿فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾[1] لأن الله لا يضلّ إلاّ من يعلم أنه لن يؤمن، ولا يهدي إلا من يعلم أنه يؤمن والمراد بالإضلال: التخلية ومنع الألطاف، وبالهداية التوفيق واللطف، فكان ذلك كناية عن الكفر والإيمان ﴿**وهو العزيز**﴾ فلا يغلب على مشيئته ﴿**الحكيم**﴾ فلا يخذل إلا أهل الخذلان، ولا يلطف إلا بأهل اللطف.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾.

﴿**ان اخرج**﴾ بمعنى أي: أخرج؛ لأنّ الإرسال فيه معنى القول كأنه قيل: أرسلناه وقلنا له: أخرج، ويجوز أن تكون أن الناصبة للفعل، وإنما صلح أن توصل بفعل الأمر لأنّ الغرض وصلها بما تكون معه في تأويل المصدر وهو الفعل والأمر، وغيره سواء في الفعلية، والدليل على جواز أن تكون الناصبة للفعل قولهم: أوعز إليه بأن افعل، فأدخلوا عليها حرف الجر، وكذلك التقدير بأن اخرج قومك ﴿**وذكرهم بايام الله**﴾ وأنذرهم بوقائعه التي وقعت على الأمم قبلهم قوم نوح وعاد وثمود، ومنه أيام العرب لحروبها وملاحمها كيوم ذي قار، ويوم الفجار، ويوم قضة وغيرها وهو الظاهر، وعن ابن عباس رضي الله عنه: نعماؤه وبلاؤه، فأمّا نعماؤه: فإنه ظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، وفلق لهم البحر، وأمّا بلاؤه، فإهلاك القرون ﴿**لكل صبار شكور**﴾ يصبر على بلاء الله، ويشكر نعماءه، فإذا سمع بما أنزل الله من البلاء على الأمم أو أفاض عليهم من النعم تنبه على ما يجب عليه من الصبر والشكر واعتبر، وقيل: أراد لكل مؤمن؛ لأنّ الشكر والصبر من سجاياهم تنبيهًا عليهم.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾.

﴿**إذ انجاكم**﴾ ظرف للنعمة بمعنى الإنعام أي: إنعامه عليكم ذلك الوقت.

فإن قُلْتَ: هل يجوز أن ينتصب بعليكم، **قُلْتُ:** لا يخلو من أن يكون صلة للنعمة بمعنى: الإنعام، أو غير صلة إذا أريد بالنعمة العطية، فإذا كان صلة لم يعمل فيه، وإذا كان غير صلة بمعنى: انكروا نعمة الله مستقرّة عليكم عمل فيه، ويتبين الفرق بين الوجهين: أنك إذا قلت نعمة الله عليكم، فإن جعلته صلة لم يكن كلامًا حتى تقول: فائضة أو نحوها وإلا كان كلامًا، ويجوز أن يكون إذ بدلاً من نعمة الله أي: انكروا وقت إنجائكم وهو من بدل الاشتمال.

فإن قُلْتَ: في سورة البقرة ﴿يذبحون﴾[2] وفي الأعراف ﴿يقتلون﴾[3] وههنا ﴿**ويذبحون**﴾ مع الواو فما الفرق؟ **قُلْتُ:** الفرق أن التذبيح حيث طرح الواو جعل تفسيرًا للعذاب وبيانًا له، وحيث أثبت جعل التذبيح لأنه أوفى على جنس العذاب وزاد عليه زيادة ظاهرة كأنه جنس آخر.

فإن قُلْتَ: كيف كان فعل آل فرعون بلاء من ربهم؟ **قُلْتُ:** تمكينهم وإمهالهم حتى فعلوا ما فعلوا ابتلاءً من الله، ووجه آخر: وهو أنّ ذلك إشارة إلى الإنجاء وهو بلاء عظيم، والبلاء يكون ابتلاء بالنعمة والمحنة جميعًا قال تعالى: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾[4] وقال زهير:

فأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾.

﴿**وإذ تاذن ربكم**﴾ من جملة ما قال موسى لقومه، وانتصابه للعطف على قوله: ﴿**نعمة الله عليكم**﴾ كأنه قيل: وإذ قال موسى لقومه: انكروا نعمة الله عليكم، واذكروا حين تأذن ربكم، ومعنى تأذن ربكم: أذن ربكم، ونظير تأذن وأذن، توعد وأوعد، تفضل وأفضل، ولا بدّ في تفعل من زيادة معنى ليس في أفعل كأنه قيل: وإذ أذن ربكم إيذانًا بليغًا تنتفي عنده الشكوك وتنزاح الشبه، والمعنى: وإذ تأذن ربكم فقال ﴿**لئن شكرتم**﴾ أو أجرى تأذن مجرى قال لأنه ضرب من القول، وفي قراءة ابن مسعود: وإذ قال ربكم

(1) سورة التغابن، الآية: 2.
(2) سورة البقرة، الآية: 49.
(3) سورة الأعراف، الآية: 141.
(4) سورة الأنبياء، الآية: 35.

لئن شكرتم أي: لئن شكرتم يا بني إسرائيل ما خولتكم من نعمة الإنجاء وغيرها من النعم بالإيمان الخالص والعمل الصالح ﴿لأزيدنكم﴾ نعمة إلى نعمة، ولأضاعفن لكم ما آتيتكم ﴿ولئن كفرتم﴾ وغمطتم ما أنعمت به عليكم ﴿إنّ عذابي لشديد﴾ لمن كفر نعمتي.

وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾.

﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم﴾ يا بني إسرائيل والناس كلهم فإنما ضررتم أنفسكم وحرمتموها الخير الذي لا بدّ لكم منه وأنتم إليه محاويج والله غني عن شكركم ﴿حميد﴾ مستوجب للحمد بكثرة أنعمه وأياديه وإن لم يحمده الحامدون.

أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٩﴾.

﴿والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله﴾ جملة من مبتدأ وخبر وقعت اعتراضًا، أو عطف الذين من بعدهم على قوم نوح ولا يعلمهم إلا الله اعتراض، والمعنى: أنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله، وعن ابن عباس رضي الله عنه: بين عدنان وإسمٰعيل ثلاثون أبًا لا يعرفون، وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال: كذب النسابون يعني: أنهم يدّعون علم الأنساب، وقد نفى الله علمها عن العباد ﴿فردّوا أيديهم في أفواههم﴾[1] فعضوها غيظًا وضجرًا مما جاءت به الرسل كقوله: ﴿عضوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾[2] أو ضحكًا واستهزاء كمن غلبه الضحك فوضع يده على فيه، أو وأشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقت به من قولهم: ﴿إنا كفرنا بما أرسلتم به﴾ أي: هذا جوابنا لكم ليس عندنا غيره إقناطًا لهم من التصديق، ألا ترى إلى قوله: ﴿فردّوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به﴾ وهذا قول قوي، أو وضعوها على أفواههم يقولون للأنبياء: أطبقوا أفواهكم واسكتوا، أو ردّوها في أفواه الأنبياء يشيرون لهم إلى السكوت، أو وضعوها على أفواههم يسكتونهم ولا يذرونهم يتكلمون، وقيل: الأيدي جمع يد وهي: النعمة بمعنى: الأيادي أي: ردّوا نعم الأنبياء التي هي أجل النعم من مواعظهم ونصائحهم وما أوحي إليهم من الشرائع والآيات في أفواههم؛ لأنهم إذا كذبوها ولم يقبلوها فكأنهم ردّوها في أفواههم ورجعوها إلى حيث جاءت منه على طريق المثل ﴿مما تدعوننا إليه﴾ من الإيمان بالله وقرئ: تدعونا بإدغام النون ﴿مريب﴾ موقع في الريبة، أو ذوي ريبة من أرابه وأراب الرجل وهي: قلق النفس وأن لا تطمئن إلى الأمر.

قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾.

﴿أفي الله شك﴾ أدخلت همزة الإنكار على الظرف؛ لأنّ الكلام ليس في الشك إنما هو في المشكوك فيه، وأنه لا يحتمل الشك لظهور الأدلة وشهادتها عليه ﴿يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم﴾ أي: يدعوكم إلى الإيمان ليغفر لكم، أو يدعوكم لأجل المغفرة كقوله: دعوته لينصرني، ودعوته ليأكل معي، وقال:

دعوت لما نابني مسورًا ... فلبى فلبى يدي مسور

فإن قُلْتَ: ما معنى التبعيض في قوله: ﴿من ذنوبكم﴾؟ **قُلْتُ:** ما علمته جاء هكذا إلا في خطاب الكافرين كقوله: ﴿واتقوه وأطيعون * يغفر لكم من ذنوبكم﴾[3] ﴿يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم﴾[4] وقال في خطاب المؤمنين: ﴿هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم﴾[5] إلى أن قال: ﴿يغفر لكم ذنوبكم﴾[6] وغير ذلك مما يقف عليه الاستقراء، وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين ولئلا يسوى بين الفريقين في الميعاد، وقيل: أريد أنه يغفر لهم ما بينهم وبين الله بخلاف ما بينهم وبين العباد من المظالم ونحوها: ﴿ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾ إلى وقت قد سماه الله وبين مقداره يبلغكموه إن آمنتم وإلا عاجلكم بالهلاك قبل ذلك الوقت ﴿إن أنتم﴾[7] ما أنتم ﴿إلا بشر مثلنا﴾ لا فضل بيننا وبينكم، ولا فضل لكم علينا، فلم تخصون بالنبوّة دوننا، ولو أرسل الله إلى البشر رسلاً لجعلهم من جنس أفضل منهم وهم الملائكة ﴿بسلطان مبين﴾ بحجة بيّنة، وقد جاءتهم رسلهم بالبينات والحجج،

---

(1) قال أحمد: وأقوى هذه الوجوه، هذا الوجه الذي نبه المصنف على اختصاصه بالقوة، وإنما كان كذلك؛ لأنّ إقناطهم الرسل من الإيمان قولاً وفعلاً، بوضع اليد في الفم، هو المناسب لحسدهم في الكفر، وتصدير العبارة بالحرف المؤكد، ومواجهة الرسل بضمائر الخطاب، وإعادة ذلك، مبالغة في التأكيد، وليس السياق بمناسب للضحك ولا الغيض، ولا لتصميت الرسل كمناسبته لإقناطهم من القبول، ألا ترى أنهم لما أعادوا للرسل القول، ولم ينكروا عليهم عودهم إلى المجادلة، دلّ على أنهم لم يسكتوهم أوّلاً، ولا كان غرضهم ذلك، والله أعلم.

(2) سورة آل عمران، الآية: 119.

(3) سورة نوح، الآيتان: 3 و4.

(4) سورة الأحقاف، الآية: 31.

(5) سورة الصف، الآية: 10.

(6) سورة الصف، الآية: 12.

(7) قال أحمد: ومن تهالكه على الانتصار، لاعتقاده تفضيل الملائكة على الرسل من البشر، يستعين حتى يحمل الكفار على أنهم كانوا يعتقدون، كمعتقد القدرية، في تفضيل الملك على الرسول؛ لأنه يدعي ذلك أمراً مركوزاً في الطباع، معلوماً ضرورة، والله الموفق.

وإنما أرادوا بالسلطان المبين آية قد اقترحوها تعنتًا ولجاجًا.

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾.

﴿إن نحن إلا بشر مثلكم﴾ تسليم لقولهم وأنهم بشر مثلهم، يعنون أنهم مثلهم في البشرية وحدها، فأما وراء ذلك فما كانوا مثلهم، ولكنهم لم ينكروا فضلهم تواضعًا منهم واقتصروا على قولهم **﴿ولكن الله يمن على من يشاء من عباده﴾** بالنبوّة؛ لأنه قد علم أنه لا يختصهم بتلك الكرامة إلا وهم أهل لاختصاصهم بها لخصائص فيهم قد استأثروا بها على أبناء جنسهم **﴿إلا بإذن الله﴾** أرادوا أن الإتيان بالآية التي اقترحتموها ليس إلينا ولا في استطاعتنا وما هو إلا أمر يتعلق بمشيئة الله **﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾** أمر منهم للمؤمنين كافة بالتوكل، وقصدوا به أنفسهم قصد أولياء وأمروها به كأنهم قالوا: ومن حقنا أن نتوكل على الله في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم وما يجري علينا منكم، ألا ترى إلى قوله: **﴿وما لنا ألا نتوكل على الله﴾** ومعناه: وأيّ عذر لنا في أن لا نتوكل عليه **﴿وقد هدانا﴾** وقد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه وهو: التوفيق لهداية كل واحد منا سبيله الذي يجب عليه سلوكه في الدين.

فإن قُلْتَ[1]: كيف كرّر الأمر بالتوكل؟ **قُلْتُ**: الأول لاستحداث التوكل، وقوله: **﴿فليتوكل المتوكلون﴾** معناه: فليثبت المتوكلون على ما استحدثوا من توكلهم وقصدهم إلى أنفسهم على ما تقدّم **﴿لنخرجنكم... أو لتعودنّ﴾** ليكونن أحد الأمرين لا محالة، إما إخراجكم وإما عودكم حالفين على ذلك.

فإن قُلْتَ: كانهم كانوا على ملتهم حتى يعودوا فيها؟ **قُلْتُ**: معاذ الله، ولكن العود بمعنى: الصيرورة وهو كثير في كلام العرب كثرة فاشية، لا تكاد تسمعهم يستعملون صار ولكن عاد، ما عدت أراه، عاد لا يكلمني، ما عاد لفلان مال، أو خاطبوا به كل رسول ومن آمن به فغلبوا في الخطاب الجماعة على الواحد **﴿لنهلكن الظالمين﴾** حكاية تقتضي إضمار القول، أو إجراء الإيحاء مجرى القول لأنه ضرب منه، وقرأ أبو حيوة: ليهلكنّ وليسكننكم بالياء اعتبارًا لأوحى وأن لفظه لفظ الغيبة ونحوه قولك: أقسم زيد ليخرجن ولأخرجن.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾.

والمراد بالأرض أرض الظالمين وديارهم ونحوه: **﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها﴾**[2] **﴿وأورثكم أرضهم وديارهم﴾**[3] وعن النبي ﷺ: «من آذى جاره ورثه الله داره»[4] ولقد عاينت هذا في مدّة قريبة كان لي خال يظلمه عظيم القرية التي أنا منها ويؤذيني فيه، فمات ذلك العظيم وملكتي الله ضيعته، فنظرت يومًا إلى أبناء خالي يترددون فيها ويدخلون في دورها ويخرجون ويأمرون وينهون، فذكرت قول رسول الله ﷺ وحدّثتهم به وسجدنا شكرًا لله **﴿ذلك﴾** إشارة إلى ما قضى به الله من إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ديارهم أي: ذلك الأمر حق **﴿لمن خاف مقامي﴾** موقفي وهو: موقف الحساب؛ لأنه موقف الله الذي يقف فيه عباده يوم القيامة، أو على إقحام المقام، وقيل: خاف قيامي عليه وحفظي لأعماله والمعنى: أنّ ذلك حق للمتقين كقوله: **﴿والعاقبة للمتقين﴾**[5].

وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾.

﴿واستفتحوا﴾ واستنصروا على أعدائهم: **﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾**[6] أو استحكموا الله وسألوه القضاء بينهم من الفتاحة وهي: الحكومة كقوله تعالى: **﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾**[7] وهو معطوف على أوحى إليهم، وقرئ: واستفتحوا بلفظ الأمر وعطفه على لنهلكن أي: أوحى إليهم ربهم وقال لهم: لنهلكنّ، وقال لهم: استفتحوا **﴿وخاب كل جبار عنيد﴾** معناه: فنصروا وظفروا وأفلحوا وخاب كل جبار عنيد، وهم قومهم، وقيل: واستفتح الكفار على الرسل ظنًا منهم على الحق والرسل على الباطل، وخاب كل جبار عنيد منهم ولم يفلح باستفتاحه.

مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾.

﴿من ورائه﴾ من بين يديه قال:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه ... يكون وراءه فرج قريب

وهذا وصف حاله وهو في الدنيا؛ لأنه مرصد لجهنم فكأنها بين يديه وهو على شفيرها، أو وصف حاله في الآخرة حيث يبعث ويوقف.

---

(1) قال أحمد: وبهذا يخرج عن وادي من قتل قتيلاً، فله سلبه، والله أعلم.

(2) سورة الأعراف، الآية: 137.

(3) سورة الأحزاب، الآية: 27.

(4) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (2/303).

(5) سورة الأعراف، الآية: 128.

(6) سورة الأنفال، الآية: 19.

(7) سورة الأعراف، الآية: 89.

فإن قُلْتَ: علام عطف **﴿ويسقى﴾**؟ **قُلْتُ:** على محذوف تقديره من ورائه جهنم يلقى فيها ما يلقى ويسقى من ماء صديد كأنه أشد عذابها فخصص بالذكر مع قوله: **﴿وياتيه الموت من كل مكان وما هو بميت﴾**.

فإن قُلْتَ: ما وجه قوله تعالى **﴿من ماء صديد﴾**؟ **قُلْتُ:** صديد عطف بيان لماء قال: ويسقى من ماء فأبهمه إبهامًا ثم بينه بقوله: صديد، وهو: ما يسيل من جلود أهل النار **﴿يتجرعه﴾** يتكلف جرعه **﴿ولا يكاد يسيغه﴾** دخل كاد للمبالغة يعني: ولا يقارب أن يسبغه فكيف تكون الإساغة كقوله: **﴿لم يكد يراها﴾**[1] أي: لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها **﴿وياتيه الموت من كل مكان﴾** كان أسباب الموت وأصنافه كلها قد تألبت عليه وأحاطت به من جميع الجهات تفظيعًا لما يصيبه من الآلام وقيل: من كل مكان من جسده حتى من إبهام رجله، وقيل: من أصل كل شعرة **﴿ومن ورائه﴾** ومن بين يديه **﴿عذاب غليظ﴾** أي: في كل وقت يستقبله يتلقى عذابًا أشدّ مما قبله وأغلظ، وعن الفضيل: هو قطع الأنفاس وحبسها في الأجساد، ويحتمل أن يكون أهل مكة قد استفتحوا أي: استمطروا، والفتح المطر في سني القحط التي أرسلت عليهم بدعوة رسول الله ﷺ فلم يسقوا، فذكر سبحانه ذلك وأنه خيب رجاء كل جبار عنيد وأنه يسقى في جهنم بدل سقياه ماء آخر، وهو صديد أهل النار، واستفتحوا على هذا التفسير كلام مستأنف منقطع عن حديث الرسل وأممهم.

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾.

وهو مبتدأ محذوف الخبر عند سيبويه تقديره: وفيما يقص عليك **﴿مثل الذين كفروا بربهم﴾** والمثل مستعار للصفة التي فيها غرابة وقوله: **﴿أعمالهم كرماد﴾** جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول: كيف مثلهم؟ فقيل: أعمالهم كرماد، ويجوز أن يكون المعنى مثل أعمال الذين كفروا بربهم، أو هذه الجملة خبرًا للمبتدأ أي: صفة الذين كفروا أعمالهم كرماد، كقولك: صفة زيد عرضه مصون وماله مبذول، أو يكون أعمالهم بدلاً من مثل الذين كفروا على تقدير مثل أعمالهم وكرماد الخبر. وقرئ: **﴿الرياح في يوم عاصف﴾** جعل العصف لليوم، وهو لما فيه، وهو الريح، أو الرياح كقولك: يوم ماطر، وليلة ساكرة، وإنما السكور لريحها، وقرئ: في يوم عاصف بالإضافة، وأعمال الكفرة المكارم التي كانت لهم من صلة الأرحام، وعتق الرقاب، وفداء الأسارى، وعقر الإبل للأضياف، وإغاثة الملهوفين، والإجارة وغير ذلك من صنائعهم، شبهها في حبوطها وذهابها هباءً منثورًا، لبنائها على غير أساس من معرفة الله والإيمان به وكونها لوجهه برماد طيرته الريح العاصف **﴿لا يقدرون﴾** يوم القيامة **﴿مما كسبوا﴾** من أعمالهم **﴿على شيء﴾** أي: لا يرون له أثرًا من ثواب كما لا يقدّر من الرماد المطير في الريح على شيء **﴿ذلك هو الضلال البعيد﴾** إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق، أو عن الثواب.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾.

﴿بالحق﴾[2] بالحكمة والغرض الصحيح والأمر العظيم ولم يخلقها عبثًا ولا شهوة. وقرئ: خالق السموات والأرض **﴿إن يشا يذهبكم﴾** أي: هو قادر على أن يعدم الناس ويخلق مكانهم خلقًا آخر على شكلهم أو على خلاف شكلهم، إعلامًا باقتداره على إعدام الموجود وإيجاد المعدوم يقدر على الشيء وجنس ضده.

وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾.

﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾[3] بمتعذر بل هو هين عليه يسير؛ لأنه قادر الذات لا اختصاص له بمقدور دون مقدور، فإذا خلص له الداعي إلى شيء وانتفى الصارف تكوّن من غير توقف كتحريك أصبعك إذا دعاك إليه داع ولم يعترض دونه صارف، وهذه الآيات بيان لإبعادهم في الضلال وعظيم خطئهم في الكفر بالله، لوضوح آياته الشاهدة له الدالة على قدرته الباهرة وحكمته البالغة، وأنه هو الحقيق بأن يعبد ويخاف عقابه ويرجى ثوابه في دار الجزاء.

وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾.

﴿وبرزوا لله﴾ ويبرزون يوم القيامة، وإنما جيء به بلفظ الماضي لأنّ ما أخبر به عزّ وعلا لصدقه كأنه قد كان ووجد، ونحوه: **﴿ونادى أصحاب الجنة﴾**[4] ونادى أصحاب النار، ونظائر له، ومعنى: بروزهم لله والله تعالى لا يتوارى عنه شيء حتى يبرز له، أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ويظنون أن ذلك خاف على الله، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم وعلموا أنّ الله لا يخفى عليه خافية، أو خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله وحكمه.

---

(1) سورة النور، الآية: 40.

(2) قال أحمد: وهذا من اعتزاله الخفي، وقد تقدّمت أمثاله.

(3) قال أحمد: وهذا اعتزال صراح لم يتقنع في إبرازه، وما أبشع قوله عن الله جلّ جلاله، خلص له الداعي وأمضى الصارف، وما أنباه = عن سمع المحققين العارفين بآداب الله تعالى، وبما يجب في حق جلاله وقد تقدّم ما فيه كفاية.

(4) سورة الأعراف، الآية: 44.

فإن قُلْتَ: لمَ كتب ﴿الضعفواء﴾ بواو قبل الهمزة؟ **قُلْتُ**: كتب على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة فيميلها إلى الواو، ونظيره ﴿علمواء بني إسرائيل﴾[1] والضعفاء: الأتباع والعوام. والذين استكبروا ساداتهم وكبراؤهم الذين استتبعوهم واستغووهم وصدّوهم عن الاستماع إلى الأنبياء واتباعهم ﴿تبعًا﴾ تابعين جمع تابع على تبع كقولهم: خادم وخدم، وغائب وغيب، أو ذوي تبع، والتبع الأتباع يقال: تبعه تبعًا.

فإن قُلْتَ: أي فرق بين من في ﴿عذاب الله﴾ وبينه في ﴿من شيء﴾؟ **قُلْتُ**: الأولى: للتبيين والثانية: للتبعيض كأنه قيل: هل أنتم مغنون عنا بعض الشيء الذي هو عذاب الله، ويجوز أن تكونا للتبعيض معًا بمعنى هل أنتم مغنون عنا بعض شيء هو بعض عذاب الله أي: بعض بعض عذاب الله.

فإن قُلْتَ: فما معنى قوله: ﴿لو هدانا الله لهديناكم﴾ **قُلْتُ**[2]: الذي قال لهم الضعفاء كان توبيخًا لهم وعتابًا على استتباعهم واستغوائهم وقولهم: ﴿فهل أنتم مغنون عنا﴾ من باب التبكيت؛ لأنهم قد علموا أنهم لا يقدرون على الإغناء عنهم فأجابوهم معتذرين عما كان منهم إليهم، بأنّ الله لو هداهم إلى الإيمان لهدو هم ولم يضلوهم إما موركين الذنب في ضلالهم وإضلالهم على الله كما حكى الله عنهم وقالوا: ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا﴾[3] ﴿لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء﴾[4] يقولون ذلك في الآخرة كما كانوا يقولونه في الدنيا، ويدل عليه قوله حكاية عن المنافقين: ﴿يوم يبعثهم الله جميعًا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء﴾[5] وإما أن يكون المعنى: لو كنا من أهل اللطف فلطف بنا ربنا واهتدينا لهدينائم إلى الإيمان، وقيل معناه: لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم أي: لأغنينا عنكم وسلكنا بكم طريق النجاة كما سلكنا بكم طريق الهلكة ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا﴾ مستويان علينا الجزع والصبر، وألهمزة وأم للتسوية ونحوه: ﴿اصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم﴾[6] وروي: أنهم يقولون: تعالوا نجزع، فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم فيقولون: تعالوا نصبر، فيصبرون كذلك، ثم يقولون سواء علينا.

فإن قُلْتَ: كيف اتصل قوله: ﴿سواء علينا﴾ بما قبله؟ **قُلْتُ**: اتصاله به من حيث أنّ عتابهم لهم كان جزعًا مما هم فيه فقالوا: سواء علينا أجزعنا أم صبرنا يريدون أنفسهم وإياهم لاجتماعهم في عقاب الضلالة التي كانوا مجتمعين فيها يقولون: ما هذا الجزع والتوبيخ ولا فائدة في الجزع كما لا فائدة في الصبر والأمر من ذلك أطمّ، أو لما قالوا لو هدانا الله طريق النجاة لأغنينا عنكم وأنجيناكم أتبعوه الإقناط من النجاة فقالوا ﴿ما لنا من محيص﴾ أي: منجي ومهرب جزعنا أم صبرنا، ويجوز أن يكون من كلام الضعفاء والمستكبرين جميعًا كأنه قيل: قالوا جميعًا: سواء علينا كقوله: ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه﴾[7]، والمحيص يكون مصدرًا: كالمغيب، والشيب، ومكانًا كالمبيت، والمصيف، ويقال: حاص عنه وجاض بمعنى واحد.

وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾.

﴿لما قضي الأمر﴾ لما قطع الأمر وفرغ منه وهو الحساب، وتصادر الفريقين ودخول أحدهما الجنة ودخول الآخر النار، وروي[8]: أنّ الشيطان يقوم عند ذلك خطيبًا في

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 50.

(2) قال أحمد: لما استشعر دلالة الآية لعقيدة السنة، المشتملة على أنّ الله تعالى مهما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنّ هداية المشركين مما لم يشأه، ولو شاءها لاهتدوا، وإنما تنشأ هذه الدلالة من إيراد هذا الكلام عن الكفار في دار الحق، حين حقت لهم الحقائق، وانكشف الغطاء، والمقصود من اقتصاصه: إنذار أمثالهم في الدنيا، وتحذيرهم من الحسرة والندم في الآخرة، إذا حق عليهم العذاب، واعترفوا بالحق، وقالوا القول المذكور، وهذا يرشد إلى أنه كلام صحيح المعنى، فلما فطن الزمخشري لذلك، شرع في تقرير تخطئتهم في هذا القول في الآخرة، كما خطأهم في الدنيا، ليتم له اعتقاد أنّ الله يشاء ما لا يكون، ويكون ما لا يشاء، ومن ذلك هداية الكفار، فإن الله تعالى يشاءها في الدنيا، لكنها لم تكن، وأنى له ذلك، وسياق الآية يصوب الكلام المذكور، وينذر الغافلين عنه في الدنيا، ويحذرهم من التورط فيما يؤدي إلى هذا الندم، حيث لا ينفع ويجر إلى هذه الحسرة إذ لا ينجع كما ورد كلام الشيطان عقيب ذلك، حين يعترف بالحق في دار الحق، وحيث لا ينفعه الندم إيمانه، فيقول: ﴿إنّ الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم﴾ الخ. وإنما سيق تحذيراً وإنذاراً إتفاقاً، والله= الموفق.

(3) سورة الأنعام، الآية: 148.

(4) سورة النحل، الآية: 35.

(5) سورة المجادلة، الآية: 18.

(6) سورة الطور، الآية: 16.

(7) سورة يوسف، الآية: 52.

(8) قال أحمد: قد حمل قول الكفار في الآية الأولى، على إبطال الانتحال؛ لأنه لا يلائم معتقده، واستشهد على أنّ الكذب حينئذ غير ممتنع، ولا متعذر، بقوله تعالى: ﴿فيحلفون له كما يحلفون لكم﴾ ثم لما ظنّ أنّ قول الشيطان هذا يلائم معتقده، اجتهد في الاستدلال على تصويبه وتصحيحه، وإن كان قائله الشيطان، كل ذلك منه اتباع للهوى حيثما توجه، وأية سلك، ونحن معاشر أهل السنة الملقبين عنده بالمجبرة، نقول: إن الله تعالى أنما أورد هذا الكلام غير رادّ له، ولا مخطيء فيه للشيطان، كما اقتصّ كلام الكفار في الآية الأولى كذلك، ونحن نعتقد أنّ الملامة إنما تتوجه على المكلف، وأمّا الله تعالى، فمقدّس عن ذلك، وحجته البالغة، وقضاؤه الحق، وذلك أنا نعترف بما خلقه الله تعالى للعبد، من الاختيار الذي يجده من نفسه عن تجاذب طرفي الأفعال الإرادية=

الأشقياء من الجن والإنس فيقول ذلك ﴿إنّ الله وعدكم وعد الحق﴾ وهو: البعث والجزاء على الأعمال فوفى لكم بما وعدكم ﴿ووعدتكم﴾ خلاف ذلك ﴿فاخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان﴾ من تسلط وقهر فأقسركم على الكفر والمعاصي وألجئكم إليها ﴿إلا أن دعوتكم﴾ إلا دعائي إياكم إلى الضلالة بوسوستي وتزييني وليس الدعاء من جنس السلطان ولكنه كقولك: ما تحيتهم إلا الضرب ﴿فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾ حيث اغتررتم بي وأطعتموني إذ دعوتكم ولم تطيعوا ربكم إذ دعاكم، وهذا دليل على أنّ الإنسان هو الذي يختار الشقاوة أو السعادة ويحصلها لنفسه، وليس من الله إلا التمكين ولا من الشيطان إلا التزيين، ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقال: فلا تلوموني ولا أنفسكم فإنّ الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه.

فإن قُلْتَ: قول الشيطان باطل لا يصح التعلق به؟**قُلْتُ:** لو كان هذا القول منه باطلاً لبيّن الله بطلانه وأظهر إنكاره، على أنه لا طائل له في النطق بالباطل في ذلك المقام الا ترى إلى قوله: ﴿إنّ الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فاخلفتكم﴾ كيف أتى فيه بالحق والصدق، وفي قوله: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان﴾ وهو مثل قول الله تعالى: ﴿إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾[1] ﴿ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيّ﴾ لا ينجي بعضنا بعضًا من عذاب الله ولا يغيثه، والإصراخ الإغاثة. وقرئ: بمصرخي بكسر الياء وهي ضعيفة واستشهدوا لها ببيت مجهول:

قال لها هل لك يا تافيّ ... قالت له ما أنت بالمرضي

وكأنّه قدّر ياء الإضافة ساكنة، وقبلها ياء ساكنة فحرّكها بالكسر لما عليه أصل التقاء الساكنين ولكنه غير صحيح؛ لأنّ ياء الإضافة لا تكون إلا مفتوحة حيث قبلها ألف في نحو عصاي فما بالها وقبلها ياء؟

فإن قُلْتَ: جرت الياء الأولى مجرى الحرف الصحيح لأجل الإدغام، فكأنها ياء وقعت ساكنة بعد حرف صحيح ساكن فحرّكت بالكسر على الأصل؟**قُلْتُ:** هذا قياس حسن، ولكن الاستعمال المستفيض الذي هو بمنزلة الخبر المتواتر تتضاءل إليه القياسات. ما في ﴿بما أشركتموني﴾ مصدرية و﴿من قبل﴾ متعلقة بأشركتموني يعني: كفرت اليوم بإشراككم إياي من قبل هذا اليوم أي: في الدنيا كقوله تعالى: ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾[2] ومعنى كفره بإشراكهم إياه: تبرؤه منه واستنكاره له كقوله تعالى: ﴿إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم﴾[3] وقيل: من قبل يتعلق بكفرت وما موصولة أي: كفرت من قبل حين أتيت السجود لآدم بالذي أشركتمونيه وهو: الله عز وجل، تقول: شركت زيدًا فإذا نقلت بالهمزة قلت: أشركنيه فلان أي: جعلني له شريكًا ونحو ما هذه ما في قولهم: سبحان ما سخركنّ لنا، ومعنى: إشراكهم الشيطان بالله. طاعتهم له فيما كان يزينه لهم من عبادة الأوثان وغيرها، وهذا آخر قول إبليس وقوله: ﴿إنّ الظالمين﴾ قول الله عزّ وجلّ، ويحتمل أن يكون من جملة قول إبليس، وإنما حكى الله عزّ وعلا ما سيقوله في ذلك الوقت ليكون لطفًا للسامعين في النظر لعاقبتهم والاستعداد لما لا بدّ لهم من الوصول إليه، وأن يتصوّروا في أنفسهم ذلك المقام الذي يقول الشيطان فيه ما يقول فيخافوا ويعملوا ما يخلصهم منه وينجيهم. وقرئ: فلا يلوموني بالياء على طريقة الالتفات كقوله تعالى: ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم﴾[4].

وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾.

وقرأ[5] الحسن وعمرو بن عبيد وأدخل الذين آمنوا: على فعل المتكلم بمعنى: وأدخل أنا، وهذا دليل على أنه من قول الله لا من قول إبليس ﴿بإذن ربهم﴾ متعلق بأدخل أي: أدخلتهم الملائكة الجنة بإذن الله وأمره.

فإن قُلْتَ: فيم يتعلق في القراءة الأخرى وقولك: وأدخلهم أنا بإذن ربهم كلام غير ملتئم **قُلْتُ:** الوجه في هذه القراءة أن يتعلق قوله بإذن ربهم: بما بعده أي ﴿تحيتهم فيها سلام﴾ بإذن ربهم يعني: أن الملائكة يحيونهم بإذن ربهم.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾.

قرئ: ألم تر كما قرئ: من يتق، وفيه ضعف ﴿ضرب الله مثلاً﴾ اعتمد مثلاً ووضعه و﴿كلمة طيبة﴾ نصب بمضمر أي: جعل كلمة طيبة ﴿كشجرة

= ضرورة، وبذلك قامت الحجة له على خلقه، وإن سلبنا عن قدرة الخلق تأثيرها في الفعل، فلا تناقض إذاً بين عقيدة السنة، وبين صرف الملامة إلى المكلف، والله الموفق.

(1) سورة الحجر، الآية: 42.

(2) سورة فاطر، الآية: 14.

(3) سورة الممتحنة، الآية: 4.

(4) سورة يونس، الآية: 22.

(5) قال أحمد: فإن قلت: ما الذي صرف الزمخشري عن حمله على الالتفات من التكلم إلى الغيبة، والجاه إلى تعليقه بما بعده، وقد= = كانت له في ذلك مندوحة، والالتفات على هذا الوجه كثير مستفيض، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ ثم قال: ﴿تنزيلاً ممن خلق الأرض﴾ ولم يقل: تنزيلاً منا. قلت: لأمر ما صرف الكلام عن هذا الوجه، وهو أن ظاهر أدخل بلفظ المتكلم، يشعر بأن إدخالهم الجنة لم يكن بواسطة، بل من الله تعالى مباشرة، وظاهر الإذن، يشعر بإضافة الدخول إلى الواسطة، فبينهما تنافر، ولكن يحسن عندي أن يعلق بخالدين، والخلود غير الدخول، فلا تنافر، والله أعلم.

طيبة﴾ وهو: تفسير لقوله: ضرب الله مثلاً كقولك: شرف الأمير زيدًا كساه حلة وحمله على فرس، ويجوز أن ينتصب مثلاً وكلمة بضرب أي: ضرب كلمة طيبة مثلاً بمعنى: جعلها مثلاً ثم قال: كشجرة طيبة على أنها خبر مبتدأ محذوف بمعنى هي: كشجرة طيبة **﴿أصلها ثابت﴾** يعني: في الأرض ضارب بعروقه فيها **﴿وفرعها﴾** وأعلاها ورأسها **﴿في السماء﴾** ويجوز أن يريد وفروعها على الاكتفاء بلفظ الجنس، وقرأ أنس بن مالك: كشجرة طيبة ثابت أصلها.

فإن قُلْتَ: أيّ فرق بين القراءتين؟ **قُلْتُ:** قراءة الجماعة أقوى معنى؛ لأنّ في قراءة أنس أجريت الصفة على الشجرة، وإذا قلت: مررت برجل أبوه قائم، فهو أقوى معنى من قولك: مررت برجل قائم أبوه؛ لأنّ المخبر عنه إنما هو الأب لا رجل، والكلمة الطيبة كلمة التوحيد، وقيل: كل كلمة حسنة كالتسبيحة، والتحميدة، والاستغفار والتوبة، والدعوة، وعن ابن عباس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأمّا الشجرة فكل شجرة مثمرة طيبة الثمار كالنخلة، وشجرة التين، والعنب، والرّمان، وغير ذلك، وعن ابن عمر أنّ رسول الله ﷺ قال ذات يوم: «إن الله ضرب مثل المؤمن شجرة فأخبروني ما هي؟ فوقع الناس في شجر البوادي، وكنت صبيًا فوقع في قلبي أنها النخلة، فهبت رسول الله ﷺ أن أقولها وأنا أصغر القوم، وروي: فمنعني مكان عمر واستحييت، فقال لي عمر: يا بنيّ لو كنت قلتها لكانت أحبّ إليّ من حمر النعم، ثم قال رسول الله ﷺ: «ألا إنها النخلة»[1]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: شجرة في الجنة، وقوله: في السماء، معناه: في جهة العلوّ والصعود ولم يرد المظلة، كقولك في الجبل: طويل في السماء تريد: ارتفاعه وشموخه.

﴿تؤتي أكلها كل حين﴾ تعطي ثمرها كل وقت وقته الله لأثمارها **﴿بإذن ربها﴾** بتيسير خالقها وتكوينه **﴿لعلهم يتذكرون﴾** لأن في ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعاني.

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾.

﴿كشجرة خبيثة﴾ كمثل شجرة خبيثة أي: صفتها كصفتها. وقرئ: ومثل كلمة بالنصب عطفًا على كلمة طيبة، والكلمة الخبيثة كلمة الشرك، وقيل: كل كلمة قبيحة، وأمّا الشجرة الخبيثة فكل شجرة لا يطيب ثمرها كشجرة الحنظل، والكشوث، ونحو ذلك، وقوله: **﴿اجتثت من فوق الأرض﴾** في مقابلة قوله: أصلها ثابت، ومعنى اجتثت: استؤصلت، وحقيقة الاجتثاث أخذ الجثة كلها **﴿ما لها من قرار﴾** أي: استقرار، يقال: قرّ الشيء قرارًا كقولك: ثبت ثباتًا، شبه بها القول الذي لم يعضد بحجة فهو داحض غير ثابت، والذي لا يبقى إنما يضمحل عن قريب لبطلانه من قولهم الباطل لجلج، وعن قتادة: أنه قيل لبعض العلماء: ما تقول في كلمة خبيثة؟ فقال: ما أعلم لها في الأرض مستقرًا ولا في السماء مصعدًا إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافي بها القيامة.

يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾.

﴿القول الثابت﴾ الذي ثبت بالحجة والبرهان في قلب صاحبه وتمكن فيه فاعتقده واطمأنت إليه نفسه، وتثبيتهم به في الدنيا أنهم إذا فتنوا في دينهم لم يزلوا كما ثبت الذين فتنهم أصحاب الأخدود، والذين نشروا بالمناشير، ومشطت لحومهم بأمشاط الحديد، وكما ثبت جرجيس وشمسون وغيرهما، وتثبيتهم في الآخرة أنهم إذا سئلوا عند تواقف الأشهاد عن معتقدهم ودينهم لم يتلعثموا ولم يبهتوا ولم تحيرهم أهوال الحشر، وقيل معناه: الثابت عند سؤال القبر، وعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح المؤمن فقال: «ثم يعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه في قبره ويقولان له من ربك؟ وما دينك؟ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد، فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي»[2]، فذلك قوله: **﴿يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾** **﴿ويضل الله الظالمين﴾** الذين لم يتمسكوا بحجة دينهم، وإنما اقتصروا على تقليد كبارهم وشيوخهم كما قلد المشركون آباءهم فقالوا: **﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾**[3] وإضلالهم في الدنيا أنهم لا يثبتون في مواقف الفتن وتزل أقدامهم أوّل شيء، وهم في الآخرة أضل وأزل **﴿ويفعل الله ما يشاء﴾** أي: ما توجبه الحكمة؛ لأن مشيئة الله تابعة للحكمة من تثبيت المؤمنين وتأييدهم وعصمتهم عند ثباتهم وعزمهم، ومن إضلال الظالمين وخذلانهم والتخلية بينهم وبين شأنهم عند زللهم.

۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾.

﴿بدلوا نعمة الله﴾ أي: شكر نعمة الله **﴿كفرًا﴾**؛ لأن شكرها الذي وجب عليهم وضعوا مكانه كفرًا، فكأنهم غيروا الشكر إلى الكفر وبدلوه تبديلاً، ونحوه: **﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾**[4] أي شكر رزقكم حيث وضعتم التكذيب موضعه، ووجه آخر وهو أنهم بدلوا نفس النعمة

(1) رواه البخاري في كتاب: تفسير القرآن ومن سورة إبراهيم، باب: «كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء..» (الحديث رقم: 4698)، ومسلم في كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، باب: «مثل المؤمن مثل النخلة» (الحديث رقم: 7029).

(2) رواه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في المسألة في القبر وعذاب القبر، وأحمد في مسنده 4/287 ـ 288.

(3) سورة الزخرف، الآيتان: 22 و23.

(4) سورة الواقعة، الآية: 82.

كفرًا، على أنهم لما كفروها سلبوها فبقوا مسلوبي النعمة موصوفين بالكفر حاصلاً لهم الكفر بدل النعمة، وهم أهل مكة أسكنهم الله حرمه وجعلهم قوام بيته وأكرمهم بمحمد ﷺ، فكفروا نعمة الله بدل ما لزمهم من الشكر العظيم، أو أصابهم الله بالنعمة في الرخاء والسعة لإيلافهم الرحلتين، فكفروا نعمته، فضربهم بالقحط سبع سنين، فحصل لهم الكفر بدل النعمة، كذلك حين أسروا وقتلوا يوم بدر وقد ذهبت عنهم النعمة وبقي الكفر طوقًا في أعناقهم، وعن عمر رضي الله عنه، هم: الأفجران من قريش: بنو المغيرة، وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمتعوا حتى حين، وقيل هم: متنصرة العرب جبلة بن الأيهم وأصحابه ﴿وأحلوا قومهم﴾ مما تابعهم على الكفر ﴿دار البوار﴾ دار الهلاك. وعطف ﴿جهنم﴾ على دار البوار عطف بيان.

وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾.

قرئ ليضلوا بفتح الياء وضمها.

فإن قُلْتَ: الضلال والإضلال لم يكن غرضهم في اتخاذ الأنداد، فما معنى اللام؟ **قُلْتُ:** لما كان الضلال والإضلال نتيجة اتخاذ الأنداد كما كان الإكرام في قولك: جئتك لتكرمني نتيجة المجيء، دخلته اللام وإن لم يكن غرضًا، على طريق التشبيه والتقريب ﴿تمتعوا﴾ إيذان بأنهم لانغماسهم في التمتع بالحاضر وأنهم لا يعرفون غيره ولا يريدونه مأمورين به قد أمرهم آمر مطاع لا يسعهم أن يخالفوه ولا يملكون لأنفسهم أمرًا دونه وهو أمر الشهوة، والمعنى: إن دمتم على ما أنتم عليه من الامتثال لأمر الشهوة ﴿فإن مصيركم إلى النار﴾ ويجوز أن يراد الخذلان والتخلية ونحوه: ﴿قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار﴾[1].

قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾.

المقول محذوف؛ لأن جواب قل يدل عليه وتقديره ﴿قل لعبادي الذين آمنوا﴾[2] أقيموا الصلاة وأنفقوا ﴿يقيموا الصلاة وينفقوا﴾ وجوزوا أن يكون يقيموا وينفقوا بمعنى: ليقيموا، وليتفقوا ويكون هذا هو المقول. قالوا: وإنما جاز حذف اللام لأن الأمر الذي هو قل عوض منه، ولو قيل: يقيموا الصلاة وينفقوا ابتداء بحذف اللام لم يجز.

فإن قُلْتَ: علام انتصب ﴿سرًا وعلانية﴾؟ **قُلْتُ:** على الحال أي: ذوي سر وعلانية بمعنى: مسرين ومعلنين، أو على الظرف أي: وقتي سر وعلانية، أو على المصدر أي: إنفاق سر وإنفاق علانية، والمعنى: إخفاء المتطوع به من الصدقات والإعلان بالواجب. والخلال المخالة.

فإن قُلْتَ: كيف طابق الأمر بالإنفاق وصف اليوم بأنه ﴿لا بيع فيه ولا خلال﴾؟ **قُلْتُ:** من قبل أنّ الناس يخرجون أموالهم في عقود المعاوضات فيعطون بدلاً ليأخذوا مثله، وفي المكارمات ومهاداة الأصدقاء ليستجروا بهداياهم أمثالها أو خيرًا منها، وأمّا الإنفاق لوجه الله خالصًا كقوله: ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى * إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى﴾[3] فلا يفعله إلا المؤمنون الخلص، فبعثوا عليه ليأخذوا بدله في يوم لا بيع فيه ولا خلال أي: لا انتفاع فيه بمبايعة ولا بمخالة ولا بما ينفقون فيه أموالهم من المعاوضات والمكارمات، وإنما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه الله، وقرئ: لا بيع فيه ولا خلال بالرفع.

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾.

﴿الله﴾ مبتدأ و﴿الذي خلق﴾ خبره و﴿من الثمرات﴾ بيان للرزق أي: اخرج به رزقاً هو ثمرات، ويجوز أن يكون من الثمرات مفعول أخرج و﴿رزقًا﴾ حالاً من المفعول أو نصبًا على المصدر من أخرج؛ لأنه في معنى رزق ﴿بأمره﴾ بقوله: كن ﴿دائبين﴾ يدأبان في سيرهما وإنارتهما، ودرئهما الظلمات، وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات ﴿وسخر لكم الليل والنهار﴾ يتعاقبان خلفة لمعاشكم وسباتكم ﴿وآتاكم من كل ما

---

(1) سورة الزمر، الآية: 8.

(2) قال أحمد: وفي هذا الإعراب نظر؛ لأن الجواب حينئذ يكون خبراً من الله تعالى، بأنه إن قال لهم هذا القول، امتثلوا مقتضاه، فأقاموا الصلاة وأنفقوا، لكنهم قد قيل لهم، فلم يمتثل كثير منهم، وخبر الله تعالى يجل عن الخلف، وهذه النكتة هي الباعثة لكثير من المعربين، على العدول عن هذا الوجه من الإعراب، مع تباينه فيما ذكر بادي الرأي، ويمكن تصحيحه بحمل العام على الغالب، لا على الاستغراق، ويقوى بوجهين لطيفين، أحدهما: أن هذا النظم لم يرد إلا لموصوف بالإيمان الحق، المنوّه بإيمانه عند الأمر، كهذه الآية، وكقوله: ﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن﴾ و﴿قل للمؤمنين= يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾ و ﴿قل للمؤمنات يغضضن من أبصارهم﴾ الثاني: تكرّر مجيئه للموصوفين، بأنهم عباد الله المشرفون بإضافتهم إلى اسم الله، وقد قالوا: أن لفظ العباد لم يرد في الكتاب العزيز، إلا مدحه للمؤمنين، وخصوصاً إذا انضاف إليه تعالى إضافة التشريف، فالحاصل من ذلك أن المأمور في هذه الآي، من هو يصدد الامتثال، وفي حيز المسارعة للطاعة، فالخبر في أمثالهم حق وصدق، أما على العموم إن أريد، أو على الغالب، والله أعلم.

(3) سورة الليل، الآيتان: 19 ـ 20

﴿سألتموه﴾ من للتبعيض أي: آتاكم بعض جميع ما سألتموه نظرًا في مصالحكم، وقرئ*: من كل بالتنوين، وما سألتموه نفي ومحله النصب على الحال أي: آتاكم من جميع ذلك غير سائليه، ويجوز أن تكون ما موصولة على وآتاكم من كل ذلك ما احتجتم إليه، ولم تصلح أحوالكم ومعايشكم إلا به، فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال **﴿لا تحصوها﴾** لا تحصروها ولا تطيقوا عدها وبلوغ آخرها، هذا إذا أرادوا أن يعدوها على الإجمال، وأمّا التفصيل فلا يقدر عليه ولا يعلمه إلا الله **﴿لظلوم﴾** يظلم النعمة بإغفال شكرها **﴿كفار﴾** شديد الكفران لها، وقيل: ظلوم في الشدّة يشكو ويجزع، كفار في النعمة يجمع ويمنع. والإنسان للجنس فيتناول الإخبال بالظلم والكفران من يوجدان منه.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾.

﴿هذا البلد﴾ يعني: البلد الحرام زاده الله أمنًا وكفاه كل باغ وظالم وأجاب فيه دعوة خليله إبراهيم عليه السلام **﴿آمنًا﴾** ذا أمن.

فإن قُلْتَ: أي فرق بين قوله: **﴿اجعل هذا بلدًا آمنًا﴾**[1] وبين قوله: **﴿اجعل هذا البلد آمنًا﴾؟ قُلْتُ:** قد سأل في الأوّل أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون، وفي الثاني: أن يخرجه من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن، كأنه قال: هو بلد مخوف فاجعله آمنًا **﴿واجنبني﴾** وقرئ*: وأجنبني وفيه ثلاث لغات: جنبه بشر، وجنبه، وأجنبه، فأهل الحجاز يقولون: جنبني شره بالتشديد، وأهل نجد: جنبني وأجنبني والمعنى: ثبتنا وأدمنا على اجتناب عبادتها **﴿وبني﴾** أراد بنيه من صلبه، وسئل ابن عيينة: كيف عبدت العرب الأصنام؟ فقال: ما عبد أحد من ولد إسمٰعيل صنمًا واحتج بقوله: **﴿واجنبني وبني﴾ ﴿أن نعبد الأصنام﴾** إنما كانت أنصاب حجارة لكل قوم قالوا: البيت حجر فحيثما نصبنا حجرًا فهو بمنزلة البيت، فكانوا يديرون بذلك الحجر ويسمونه: الدوار، فاستحب أن يقال: طاف بالبيت ولا يقال: دار بالبيت.

رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾.

﴿إنهنّ أضللن كثيرًا من الناس﴾ فأعوذ بك أن تعصمني وبني من ذلك، وإنما جعلن مضلات لأنّ الناس ضلوا بسببهنّ فكأنهنّ أضللنهم كما تقول: فتنتهم الدنيا وغرّتهم أي: افتتنوا بها واغتروا بسببها **﴿فمن تبعني﴾** على ملتي وكان حنيفًا مسلمًا مثلي **﴿فإنه مني﴾** أي: هو بعضي لفرط اختصاصه بي وملابسته لي، وكذلك قوله: «من غشنا فليس منا»[2] أي: ليس بعض المؤمنين على أنّ الغش ليس من أفعالهم وأوصافهم **﴿ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾** تغفر له ما سلف منه من عصياني إذا بدا له فيه واستحدث الطاعة لي، وقيل: معناه ومن عصاني فيما دون الشرك.

رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾.

﴿من ذريتي﴾ بعض أولادي وهم: إسمٰعيل ومن ولد منه **﴿بواد﴾** هو: وادي مكة **﴿غير ذي زرع﴾** لا يكون فيه شيء من زرع قط كقوله: **﴿قرآنًا عربيًا غير ذي عوج﴾**[3] بمعنى: لا يوجد فيه اعوجاج، ما فيه إلا الاستقامة لا غير. وقيل للبيت المحرم: لأنّ الله حرم التعرض له والتهاون به وجعل ما حوله حرمًا لمكانه، أو لأنه لم يزل ممنعًا عزيزًا يهابه كل جبار كالشيء المحرم الذي حقه أن يجتنب، أو لأنه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكها، أو لأنه حرم على الطوفان أي: منع منه، كما سمي: عتيقًا لأنه أعتق منه فلم يستول عليه **﴿ليقيموا الصلاة﴾** اللام متعلقة بأسكنت أي: ما أسكنتهم هذا الوادي الخلاء البلقع من كل مرتفق ومرتزق، إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم، ويعمروه بذكرك وعبادتك، وما تعمر به مساجدك ومتعبداتك متبركين بالبقعة التي شرفتها على البقاع، مستسعدين بجوارك الكريم، متقربين إليك بالعكوف عند بيتك والطواف به، والركوع والسجود حوله مستنزلين الرحمة التي آثرت بها سكان حرمك **﴿أفئدة من الناس﴾** أفئدة من أفئدة الناس، ومن للتبعيض ويدل عليه ما روي عن مجاهد: لو قال أفئدة الناس لزحمتكم عليه فارس والروم، وقيل: لو لم يقل من لازدحموا عليه حتى الروم والترك والهند، ويجوز أن يكون من للابتداء كقولك: القلب مني سقيم تريد: قلبي، فكأنه قيل: أفئدة ناس وإنما نكرت المضاف إليه في هذا التمثيل لتنكير أفئدة؛ لأنها في الآية نكرة ليتناول بعض الأفئدة وقرئ*: آفدة بوزن عافدة وفيه وجهان: أحدهما: أن يكون من القلب كقولك: آدر في ادؤر، والثاني: أن يكون اسم فاعله من أفدت الرحلة إذا عجلت أي: جماعة أو جماعات يرتحلون إليهم ويعجلون نحوهم، وقرئ*: أفدة وفيه وجهان: أن تطرح الهمزة للتخفيف، وإن كان الوجه أن تخفف بإخراجها بين بين، وأن يكون من أفد **﴿تهوي إليهم﴾** تسرع إليهم وتطير نحوهم شوقًا ونزاعًا من قوله:

يهوي مخارمها هويّ الأجدل

وقرئ*: تهوي إليهم على البناء للمفعول من هوى إليه وأهواه غيره، وتهوي إليهم من هوى يهوي إذا أحب ضمن

---

(1) سورة البقرة، الآية: 126.

(2) رواه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: قول النبي ﷺ: «من غشنا = فليس منا» (الحديث رقم: 279).

(3) سورة الزمر، الآية: 28.

معنى تنزع فعدّي تعديته ﴿وارزقهم من الثمرات﴾ مع سكناهم واديًا ما فيه شيء منها بأن تجلب إليهم من البلاد ﴿لعلهم يشكرون﴾ النعمة في أن يرزقوا أنواع الثمرات حاضرة في واد بباب ليس فيه نجم ولا شجر ولا ماء، لا جرم أن الله عز وجل أجاب دعوته فجعله حرمًا آمنًا تجبى إليه ثمرات كل شيء رزقًا من لدنه، ثم فضله في وجود أصناف الثمار فيه على كل ريف وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثمارًا، وفي أي بلد من بلاد الشرق والغرب ترى الأعجوبة التي يريكها الله بواد غير ذي زرع وهي: اجتماع البواكير والفواكه المختلفة الأزمان من الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد وليس ذلك من آياته بعجيب، متعنا الله بسكنى حرمه، ووفقنا لشكر نعمه، وأدام لنا التشرف بالدخول تحت دعوة إبراهيم عليه السلام، ورزقنا طرفًا من سلامة ذلك القلب السليم.

رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾.

النداء المكرر دليل التضرع واللجأ إلى الله تعالى ﴿إنك تعلم ما تخفي وما نعلن﴾ تعلم السرّ كما تعلم العلن علمًا لا تفاوت فيه؛ لأنّ غيبًا من الغيوب لا يحتجب عنك، والمعنى: أنك أعلم بأحوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا منا، وأنت أرحم بنا وأنصح لنا منا بأنفسنا ولها، فلا حاجة إلى الدعاء والطلب، وإنما ندعوك إظهارًا للعبودية لك، وتخشعًا لعظمتك، وتذللاً لعزتك، وافتقارًا إلى ما عندك، واستعجالاً لنيل أياديك، وولهًا إلى رحمتك، وكما يتملق العبد بين يدي سيده رغبة في إصابة معروفه مع توفر السيد على حسن الملكة، وعن بعضهم أنه رفع حاجته إلى كريم فأبطأ عليه النجح فأراد أن يذكره، فقال: مثلك لا يذكر استقصارًا ولا توهمًا للغفلة عن حوائج السائلين، ولكن ذا الحاجة لا تدعه حاجته أن لا يتكلم فيها، وقيل: ما نخفي من الوجد لما وقع بيننا من الفرقة وما نعلن من البكاء والدعاء، وقيل: ما نخفي من كآبة الافتراق وما نعلن يريد ما جرى بينه وبين هاجر حين قالت له عند الوداع إلى من تكلنا؟ قال: إلى الله أكلكم قالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا نخشى تركتنا إلى كاف. ﴿وما يخفى على الله من شيء﴾ من كلام الله عز وجلّ تصديقًا لإبراهيم عليه السلام كقوله: ﴿وكذلك يفعلون﴾[1] أو من كلام إبراهيم يعني: وما يخفى على الله الذي هو عالم الغيب من شيء في كل مكان، ومن للاستغراق كأنه قيل: وما يخفى عليه شيء ما.

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾.

على قوله: ﴿على الكبر﴾ بمعنى: مع كقوله.

إني على ما ترين من كبري أعلم من حيث تؤكل الكتف

وهو في موضع الحال معناه: وهب لي وأنا كبير وفي حال الكبر. روي: أنّ إسماعيل ولد له وهو ابن تسع وتسعين سنة، وولد له إسحٰق وهو ابن مائة وثنتي عشرة سنة، وقد روي: أنه ولد له إسماعيل لأربع وستين، وإسحٰق لتسعين، وعن سعيد بن جبير: لم يولد لإبراهيم إلا بعد مائة وسبع عشرة سنة، وإنما ذكر حال الكبر لأنّ المنة بهبة الولد فيها أعظم من حيث إنها حال وقوع اليأس من الولادة والظفر بالحاجة على عقب اليأس من أجلّ النعم وأحلاها في نفس الظافر، ولأنّ الولادة في تلك السنّ العالية كانت آية لإبراهيم ﴿إنّ ربي لسميع الدعاء﴾ كان قد دعا ربه وسأله الولد فقال ﴿رب هب لي من الصالحين﴾[2] فشكر الله ما أكرمه به من إجابته.

فإن قُلْتَ: الله تعالى يسمع كل دعاء أجابه أو لم يجبه؟

قُلْتُ: هو من قولك: سمع لك كلام فلان إذا اعتدّ به قبله، ومنه: سمع الله لمن حمده، وفي الحديث: «ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي يتغنى بالقرآن»[3].

فإن قُلْتَ: ما هذه الإضافة إضافة السميع إلى الدعاء؟

قُلْتُ: إضافة الصفة إلى مفعولها، وأصله لسميع الدعاء وقد ذكر سيبويه فعيلاً في جملة أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل كقولك: هذا ضروب زيدًا، وضراب أخاه، ومنحار إبله، وحذر أمورًا، ورحيم أباه، ويجوز أن يكون من إضافة فعيل إلى فاعله، ويجعل دعاء الله سميعًا على الإسناد المجازي، والمراد سماع الله ﴿ومن ذريتي﴾ وبعض ذريتي عطفًا على المنصوب في اجعلني، وإنما بعض لأنه علم بإعلام الله أن يكون في ذرّيته كفار وذلك قوله: ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾[4] ﴿وتقبل دعاءي﴾ أي: عبادتي ﴿واعتزلكم وما تدعون من دون الله﴾[5].

رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾.

في قراءة أبيّ: ولأبوي، وقرأ سعيد بن جبير: ولوالديّ على الأفراد يعني: أباه، وقرأ الحسن بن علي رضي الله عنهما: ولولديّ يعني: إسمٰعيل إسحٰق، وقرئ: لولدي بضم الواو، والولد بمعنى: الولد كالعدم والعدم، وقيل: جمع ولد كأسد في أسد، وفي بعض المصاحف: ولذريتي.

فإن قُلْتَ: كيف جاز له أن يستغفر لأبويه وكانا كافرين؟

قُلْتُ: هو من مجوّزات العقل، لا يعلم امتناع جوازه إلا بالتوقيف، وقيل: أراد بوالديه آدم وحواء، وقيل: بشرط

---

(1) سورة النمل، الآية: 34.

(2) سورة الصافات، الآية: 100.

(3) رواه البخاري في كتاب: «فضائل القرآن» باب: «من لم يتغن بالقرآن (الحديث رقم 5023) ومسلم في كتاب: «صلاة المسافرين وقصرها»، باب: استحباب تحسين الصوت بالقرآن (الحديث رقم: 1842).

(4) سورة البقرة، الآية: 124.

(5) سورة مريم، الآية: 48.

الإسلام ويأباه قوله: ﴿إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنّ لك﴾[1] لأنه لو شرط الإسلام لكان استغفارًا صحيحًا لا مقال فيه، فكيف يستثنى الاستغفار الصحيح من جملة ما يؤتسى فيه بإبراهيم؟ ﴿يوم يقوم الحساب﴾ أي: يثبت وهو مستعار من قيام القائم على الرجل، والدليل عليه قوله: قامت الحرب على ساقها، ونحوه قولهم: ترجلت الشمس إذا أشرقت وثبت ضوءها كأنها قامت على رجل، ويجوز أن يسند إلى الحساب قيام أهله إسنادًا مجازيًا، أو يكون مثل: ﴿واسئل القرية﴾[2] وعن مجاهد: قد استجاب الله له فيما سأل فلم يعبد أحد من ولده صنمًا بعد دعوته، وجعل البلد آمنًا، ورزق أهله من الثمرات، وجعله إمامًا، وجعل في ذريته من يقيم الصلاة، وأراه مناسكه، وتاب عليه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كانت الطائف من أرض فلسطين فلما قال إبراهيم: ﴿ربنا إني أسكنت﴾[3] الآية رفعها الله فوضعها حيث وضعها رزقًا للحرم.

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾.

فإن قُلْتَ: يتعالى الله عن السهو والغفلة، فكيف يحسبه رسول الله ﷺ وهو أعلم الناس به غافلاً حتى قيل ﴿ولا تحسبن الله غافلاً﴾؟ **قُلْتُ:** إن كان خطابًا لرسول الله ﷺ ففيه وجهان: أحدهما: التثبيت على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلاً كقوله: ﴿ولا تكونن من المشركين﴾[4] ﴿ولا تدع مع الله إلٰهًا آخر﴾[5] كما جاء في الأمر ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله﴾[6] والثاني: أنّ المراد بالنهي عن حسبانه غافلاً الإيذان بأنه عالم بما يفعل الظالمون لا يخفى عليه منه شيء، وأنه معاقبهم على قليله وكثيره على سبيل الوعيد والتهديد كقوله: ﴿والله بما تعملون عليم﴾[7] يريد الوعيد، ويجوز أن يراد: ولا تحسبنه يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون، ولكن معاملة الرقيب عليهم المحاسب على النقير والقطمير، وإن كان خطابًا لغيره ممن يجوز أن يحسبه غافلاً لجهله بصفاته فلا سؤال فيه، وعن ابن عيينة: تسلية للمظلوم وتهديد للظالم، فقيل له: من قال هذا؟ فغضب وقال: إنما قاله من علمه. وقرئ: يؤخرهم بالنون والياء ﴿تشخص فيه الأبصار﴾ أي: أبصارهم لا تقرفي أماكنها من هول ما ترى.

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾.

﴿مهطعين﴾ مسرعين إلى الداعي، وقيل: الإهطاع أن تقبل ببصرك على المرئي تديم النظر إليه لا تطرف ﴿مقنعي رؤوسهم﴾ رافعيها ﴿لا يرتد إليهم طرفهم﴾ لا يرجع إليهم أن يطوفوا بعيونهم أي: لا يطوفون ولكن عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك للأجفان، أو لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم. الهواء: الخلاء الذي لم تشغله الأجرام فوصف به، فقيل: قلب فلان هواء إذا كان جبانًا لا قوّة في قلبه ولا جرأة، ويقال للأحمق أيضًا: قلبه هواء. قال زهير:

من الظلمان جؤجؤه هواء

لأنّ النعام مثل في الجبن والحمق، وقال حسان:

فأنت مجوف تخب هواء

وعن ابن جريج: أفئدتهم هواء صفر من الخير خاوية منه، وقال أبو عبيدة: جوف لا عقول لهم.

وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾.

﴿يوم ياتيهم العذاب﴾ مفعول ثان لأنذر وهو: يوم القيامة ومعنى ﴿اخرنا إلى أجل قريب﴾: ردنا إلى الدنيا وأمهلنا إلى أمد وحد من الزمان قريب نتدارك ما فرطنا فيه من إجابة دعوتك واتباع رسلك، أو أريد باليوم يوم هلاكهم بالعذاب العاجل، أو يوم موتهم معذبين بشدّة السكرات ولقاء الملائكة بلا بشرى، وأنهم يسألون يومئذ أن يؤخرهم ربهم إلى أجل قريب كقوله: ﴿لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق﴾[8] ﴿أولم تكونوا أقسمتم﴾ على إرادة القول وفيه وجهان: أن يقولوا: ذلك بطرًا وأشرًا ولما استولى عليهم من عادة الجهل والسفه، وأن يقولوه بلسان الحال حيث بنوا شديدًا وأملوا بعيدًا و ﴿ما لكم﴾ جواب القسم وإنما جاء بلفظ الخطاب لقوله: أقسمتم، ولو حكى لفظ المقسمين لقيل: ما لنا ﴿من زوال﴾ والمعنى: أقسمتم أنكم باقون في الدنيا لا تزالون بالموت والفناء، وقيل: لا تنتقلون إلى دار أخرى يعني: كفرهم بالبعث كقوله: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾[9].

وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾.

يقال: سكن الدار وسكن فيها ومنه قوله تعالى: ﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم﴾ لأنّ السكنى من السكون الذي هو: اللبث، والأصل تعديه بفي كقولك: قرّ في الدار وغني فيها وأقام فيها، ولكنه لما نقل

(1) سورة الممتحنة، الآية: 4.
(2) سورة يوسف، الآية: 82.
(3) سورة إبراهيم، الآية: 37.
(4) سورة الأنعام، الآية: 14.
(5) سورة القصص، الآية: 88.
(6) سورة النساء، الآية: 136.
(7) سورة البقرة، الآية: 283.
(8) سورة المنافقون، الآية: 10.
(9) سورة النحل، الآية: 38.

إلى سكون خاص تصرف فيه فقيل: سكن الدار كما قيل: تبوّأها وأوطنها، ويجوز أن يكون سكنوا من السكون أي: قرّوا فيها واطمأنوا طيبي النفوس سائرين سيرة من قبلهم في الظلم والفساد، لا يحدّثونها بما لقي الأوّلون من أيام الله وكيف كان عاقبة ظلمهم فيعتبروا ويرتدعوا ﴿وتبين لكم﴾ بالإخبار والمشاهدة ﴿كيف﴾ أهلكناهم وانتقمنا منهم، وقرئ*: ونبين لكم بالنون ﴿وضربنا لكم الأمثال﴾ أي: صفات ما فعلوا وما فعل بهم، وهي في الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم.

وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾.

﴿وقد مكروا مكرهم﴾ أي: مكرهم العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم ﴿وعند الله مكرهم﴾ لا يخلو إمّا أن يكون مضافًا إلى الفاعل كالأوّل على معنى: ومكتوب عند الله مكرهم فهو مجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه، أو يكون مضافًا إلى المفعول على معنى وعند الله مكرهم الذي يمكرهم به، وهو عذابهم الذي يستحقونه يأتيهم به من حيث لا يشعرون ولا يحتسبون ﴿وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾ وإن عظم مكرهم وتبالغ في الشدّة فضرب زوال الجبال منه مثلاً لتفاقمه وشدّته، أي: وإن كان مكرهم مسوى لإزالة الجبال معدًا لذلك، وقد جعلت إن نافية واللام مؤكدة لها كقوله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾[1] والمعنى: ومجال أن تزول الجبال بمكرهم، على أنّ الجبال مثل لآيات الله وشرائعه؛ لأنها بمنزلة الجبال الراسية ثباتًا وتمكنًا وتنصره قراءة ابن مسعود: وما كان مكرهم، وقرئ*: لتزول بلام الابتداء على وإن كان مكرهم من الشدّة بحيث تزول منه الجبال وتنقلع من أماكنها، وقرأ علي وعمر رضي الله عنهما: وإن كاد مكرهم.

فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾.

﴿مخلف وعده رسله﴾ يعني: قوله: ﴿إنا لننصر رسلنا﴾[2] ﴿كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي﴾[3].

فإن قُلْتَ[4]: هلا قيل مخلف رسله وعده، ولم قدّم المفعول الثاني على الأوّل؟ **قُلْتُ**: قدّم الوعد ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلاً كقوله: ﴿إنّ الله لا يخلف الميعاد﴾[5] ثم قال: أرسله ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحدًا وليس من شأنه إخلاف المواعيد كيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته، وقرئ*: مخلف وعده رسله بجرّ الرسل ونصب الوعد وهذه في الضعف كمن قرأ: قتل أولادهم شركائهم ﴿عزيز﴾ غالب لا يماكر ﴿ذو انتقام﴾ لأوليائه من أعدائه.

يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾.

﴿يوم تبدّل الأرض﴾ انتصابه على البدل من ﴿يوم يأتيهم﴾[6]، أو على الظرف للانتقام، والمعنى يوم تبدّل هذه الأرض التي تعرفونها أرضًا أخرى غير هذه المعروفة وكذلك السمٰوات، والتبديل التغيير، وقد يكون في الذوات كقولك: بدّلت الدراهم دنانير، ومنه: ﴿بدّلناهم جلودًا غيرها﴾[7] ﴿وبدّلناهم بجنتيهم جنتين﴾[8] وفي الأوصاف كقولك: بدلت الحلقة خاتمًا إذا أذبتها وسوّيتها خاتمًا فنقلتها من شكل إلى شكل ومنه قوله تعالى: ﴿فأولٰئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات﴾[9] واختلف في تبديل الأرض والسمٰوات، فقيل: تبدّل أوصافها، فتسير عن الأرض جبالها، وتفجر بحارها، وتسوّى فلا يرى فيها عوج ولا أمت، وعن ابن عباس: هي تلك الأرض وإنما تغير وأنشد:

وما الناس بالناس الذين عهدتهم ... ولا الدار بالدار التي كنت تعلم

وتبدّل السماء بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبوابًا، وقيل: يخلق بدلها أرض وسمٰوات أخر، وعن ابن مسعود، وأنس: يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطئ عليها أحد خطيئة، وعن علي رضي الله عنه: تبدّل أرضًا من فضة وسمٰوات من ذهب، وعن الضحاك: أرضًا من فضة بيضاء كالصحائف، وقرئ*: يوم نبدّل الأرض بالنون.

فإن قُلْتَ: كيف قال ﴿الواحد القهار﴾؟ **قُلْتُ**: هو كقوله: ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾[10] لأنّ الملك إذا كان لواحد غلاب لا يغالب ولا يعاز فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار كان الأمر في غاية الصعوبة والشدّة.

وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾.

﴿مقرنين﴾ قرن بعضهم مع بعض أو مع الشياطين، أو

---

(1) سورة البقرة، الآية: 143.
(2) سورة غافر، الآية: 51.
(3) سورة المجادلة، الآية: 21.
(4) قال أحمد: وفيما قاله نظر؛ لأنّ الفعل تقيد بمفعول، انقطع طلاقه، فليس تقديم الوعد في الآية دليلاً على إطلاق الفعل، باعتبار الموعود، حتى يكون ذكر الرسل بائناً كالأجنبي، من الإطلاق الأوّل، ولا فرق في المعنى الذي ذكره، بين تقديم ذكر الرسل وتأخيره، ولا يفيد تقديم المفعول الثاني، إلا الإيذان بالعناية في مقصود المتكلم، والأمر بهذه المثابة في الآية؛ لأنها وردت في سياق الإنذار والتهديد للظالمين، بما توعدهم الله تعالى به على = ألسنة الرسل، فالمهم في التهديد ذكر الوعيد، وأمّا كونه على ألسنة الرسل، فذلك أمر لا يقف التخويف عليه، ولا بدّ حتى لو فرض التوعد من الله تعالى على غير لسان رسول، لكان الخوف منه حسيباً كافياً، والله أعلم.
(5) سورة آل عمران، الآية: 9، سورة الرعد، الآية: 31.
(6) سورة إبراهيم، الآية: 44.
(7) سورة النساء، الآية: 56.
(8) سورة سبأ، الآية: 16.
(9) سورة الفرقان، الآية: 70.
(10) سورة غافر، الآية: 16.

قرنت أيديهم إلى أرجلهم مغللين وقوله: ﴿في الأصفاد﴾ إمّا أن: يتعلق بمقرنين أي: يقرنون في الأصفاد، وإمّا أن لا يتعلق به، فيكون المعنى مقرنين مصفدين، والأصفاد: القيود، وقيل: الأغلال، وأنشد لسلامة بن جندل:

وزيد الخيل قد لاقى صفادًا يعضّ بساعد وبعظم ساق

سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾.

القطران فيه ثلاث لغات: قطران، وقطران، وقطران، بفتح القاف وكسرها مع سكون الطاء وهو: ما يتحلب من شجر يسمى: الأبهل فيطبخ فتهنأ به الإبل الجربى، فيحرق الجرب بحره وحدته والجلد وقد تبلغ حرارته الجوف، ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار، وقد يستسرج به، وهو أسود اللون منتن الريح، فتطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل وهي: القمص، لتجتمع عليهم الأربع: لذع القطران، وحرقته، وإسراع النار في جلودهم، واللون الوحش، ونتن الريح، على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين، وكل ما وعده الله أو أوعد به في الآخرة فبينه وبين ما نشاهد من جنسه ما لا يقادر قدره، وكأنه ما عندنا منه إلا الأسامي والمسميات ثمة، فبكرمه الواسع نعوذ من سخطه، ونسأله التوفيق فيما ينجينا من عذابه، وقرئ*: من قطرآن والقطر: النحاس أو الصفر المذاب والآتي المتناهي حرجه ﴿وتغشى وجوههم النار﴾ كقوله تعالى: ﴿فمن يتقي بوجهه سوء العذاب﴾[1] ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم﴾[2] لأن الوجه أعز موضع في ظاهر البدن وأشرفه كالقلب في باطنه ولذلك قال: ﴿تطلع على الأفئدة﴾[3] وقرئ*: وتغشى وجوههم بمعنى: تغشى. أي: يفعل بالمجرمين ما يفعل.

لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾.

﴿ليجزي الله كل نفس﴾ مجرمة ﴿ما كسبت﴾ أو كل نفس من مجرمة ومطيعة، لأنه إذا عاقب المجرمين لإجرامهم علم أنه يثيب المطيعين لطاعتهم.

هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾.

﴿هذا بلاغ للناس﴾ كفاية في التنكير والموعظة يعني: بهذا ما وصفه من قوله: ولا تحسبن إلى قوله: سريع الحساب ﴿ولينذروا﴾ معطوف على محذوف أي: لينصحوا ولينذروا ﴿به﴾ بهذا البلاغ، وقرئ*: ولينذروا بفتح الياء من نذر به إذا علمه واستعمله ﴿وليعلموا إنما هو إله واحد﴾ لأنهم إذا خافوا ما أنذروا به دعتهم المخافة إلى النظر حتى يتوصلوا إلى التوحيد؛ لأن الخشية أمّ الخير كله.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة إبراهيم أعطي من الأجر عشر حسنات، بعدد كل من عبد الأصنام وعدد من لم يعبد»[4].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الحجر مكية

الٓرٰ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾.

﴿تلك﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات. والكتاب والقرآن المبين السورة، وتنكير القرآن للتفخيم، والمعنى: تلك آيات الكتاب الكامل في كونه كتابًا وآي قرآن مبين، كأنه قيل: الكتاب الجامع للكمال والغرابة في البيان.

رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾.

قرئ*: ربما وربتما بالتشديد وربما وربما بالضم والفتح مع التخفيف.

فإن قُلْتَ: لم دخلت على المضارع وقد أبوا دخولها إلا على الماضي؟ **قُلْتُ:** لأنّ المترقب في إخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه فكأنه قيل: ربما ودّ.

فإن قُلْتَ: متى تكون ودادتهم؟ **قُلْتُ:** عند الموت، أو يوم القيامة إذا عاينوا حالهم وحال المسلمين، وقيل: إذا رأوا المسلمين يخرجون من النار، وهذا أيضًا باب من الودادة.

فإن قُلْتَ[5]: فما معنى التقليل؟ **قُلْتُ:** هو وارد على مذهب العرب في قولهم: لعلك ستندم على فعلك، وربما ندم الإنسان على ما فعل، ولا يشكون في تندمه ولا يقصدون

---

(1) سورة الزمر، الآية: 24.
(2) سورة القمر، الآية: 48.
(3) سورة الهمزة، الآية: 7.
(4) ذكره ابن مردويه والواحدي ذكره (الزيلعي 2/205).
(5) قال أحمد: لا شك أن العرب تعبر عن المعنى، بما يؤدّي عكس مقصوده كثيراً، ومنه قوله:

قد أترك القرن مصفراً أنامله

وإنما يمتدح بالإكثار من ذلك، وقد عبر بقد المفيدة للتقليل، ومنه والله أعلم، وقد تعلمون أني رسول الله، والمقصود: توبيخهم على أذاهم لموسى عليه السلام، على توفر علمهم برسالته، ومناصحته لهم، وقد اختلف توجيه علماء البيان لذلك، فمنهم من وجهه بما= = ذكره الزمخشري آنفاً، من التنبيه بالأدنى على الأعلى، ومنهم من وجهه بأن المقصود في ذلك: الإيذان بأن المعنى قد بلغ الغاية، حتى كاد أن يرجع إلى الضدّ، وذلك شأن كل ما انتهى لنهايته، أن يعود إلى عكسه، وقد أفصح أبو الطيب ذلك بقوله:

ولجت حتى كدت تبخل حائلاً للمنتهى ومن السرور بكاء

وكلا هذين الوجهين، يحمل الكلام على المبالغة بنوع من الإيقاظ إليها، والعمدة في ذلك على سياق الكلام: لأنه إذا اقتضى مثلاً تكثيراً، فدخلت فيه عبارة يشعر ظاهرها بالتقليل، استيقظ السامع بأن المراد: المبالغة على إحدى الطريقتين المذكورتين، والله أعلم.